

نَقُولُ : « نَعَاظِمُنِي الْأَمْرُ » أَيُ : هَالَنِي وَعَظَمَ عَلَيَّ ، وَ « نَعَاظَمْتُهُ » أَيُ : اسْتَغْظَمْتُهُ وَأَنْكَرْتُهُ ، وَلَفْظُ « أَبِي دَاوُدَ » : « مَا نُعْظَمُ أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِ » مِنَ الْأَعْظَامِ بِمَعْنَى الْأَسْتِعْظَامِ ، أَيُ : نَعُدُّ التَّكَلَّمَ بِهِ ذَنْبًا عَظِيمًا ، فَتُنَزَّهَ عَنْهُ أَلَسْتَنَا لِقُبْحِهِ وَشَنَاعَتِهِ .

لَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ مِنَ الصُّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنْ يَصْرَحَ بِأَعْيَانِ تِلْكَ الْخَوَاطِرِ الَّتِي اغْتَرَبَتْهُمْ ، حَتَّى بَلَغَتْ بِهِمْ شِدَّةُ الْحَدَرِ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغًا يُفَسِّرُهُ لَنَا حَدِيثُ « ابْنِ عَبَّاسٍ » عِنْدَ « أَبِي دَاوُدَ » قَالَ : « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنْ أَحَدُنَا لَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ يَغْرِضُ بِالشَّيْءِ لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ » الْحُمَمَةُ - بَضْمٌ فَفَتَحَ - : وَاحِدَةُ الْحُمَمِ وَهُوَ الْقَحْمُ وَكُلُّ مَا اخْتَرَقَ مِنَ النَّارِ ، وَالضَّمِيرُ فِي « لَأَنْ يَكُونَ » لِلْأَحَدِ ، وَاللَّامُ فِيهِ لِلابْتِدَاءِ أَوْ الْقَسَمِ أَيُ : وَاللَّهُ ! لَأَنْ يَحْتَرِقَ أَحَدُنَا حَتَّى يَصِيرَ قَحْمًا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ التَّكَلَّمَ بِذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ ، فَضْلًا عَنِ الْأَعْقَادِ بِهِ .

لَكِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ بُعِثَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ كُلَّ مَا يَغْنِيهِمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لَمْ يَجِدْ حَرَجًا أَنْ يَذْكُرَ لَنَا بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ مِثْلًا مَا يَجِدُهُ النَّاسُ فِي صُدُورِهِمْ ، فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا رَوَاهُ « الشَّيْخَانِ » عَنْ « أَبِي هُرَيْرَةَ » : « يَا أَيُّ الشَّيْطَانِ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ : مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟ » مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟ حَتَّى يَقُولَ : « مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ ؟ »

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى « لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ : « هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ ؟ » . وَبُقِاسٌ عَلَى هَذَا الْخَطَرِ مَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْهَوَاجِسِ فِي أَمْرِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْأَعْتِقَادِيَّةِ . » قَالَ « - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

« أَوْ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » : اسْتَفْهَامٌ تَضَرُّعِيٌّ ، وَالْوَارُ عَاطِفَةٌ عَلَى مُسْتَفْهَمٍ عَنْهُ مَحْذُوفٌ ، أَيْ : « أَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْوَسْوَاسُ ؟ وَقَدْ وَجَدْتُمْ مِنْهُ فِي صُدُورِكُمْ هَذَا الانْتِفَاضَ وَالْإِشْعِيزَازَ ؟ يُشِيرُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُتَوَقَّعِ حَدُوثُ الْوَسَاوِسِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ وَهُوَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ لِنَشْرِخِ لَهَا صُدُورُهُمْ ، أَوْ لَتَزْيِغِ بِهَا قُلُوبَهُمْ ، وَمَنْشَأُ هَذِهِ الْإِشَارَةِ تَعْبِيرُهُ بِكَلِمَةٍ : « قَدْ » الَّتِي بُجَاءَ بِهَا فِي الْكَلَامِ لِتَحْقِيقِ أَمْرٍ يُنْتَظَرُ وَقُوعُهُ . نَقُولُ : « جَاءَ فُلَانٌ » إِذَا كَانَ السَّامِعُ خَالِيًا الذَّهْنِ مِنْ مَجِيئِهِ وَعَدَمِهِ ، فَإِذَا كَانَ مُشَوِّفًا لِحَبْرِ مَجِيئِهِ ، مُتَوَقِّعًا لَهُ قُلْتُ : « قَدْ جَاءَ فُلَانٌ » .

« قَالُوا : « نَعَمْ » يَا رَسُولَ اللَّهِ ! « قَدْ وَجَدْنَاهُ وَأَنْكَرْنَاهُ . »

« قَالَ « - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

« ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » : هَهُنَا مَرَجِعَانِ لِاسْمِ الْإِشَارَةِ بِحَسَبِ اللَّفْظِ فَإِنَّ كَانَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ هُوَ انْكَارُ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ وَاسْتِعْظَامُهَا وَالْخَوْفُ مِنْ

النُّطْقِي بِهَا فَضْلًا عَنِ اعْتِقَادِهَا فَلَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِلَالِمَاتِ صَحْوِ  
الْإِيمَانِ . وَخُلُوصِهِ مِنْ شَوَائِبِ الشُّكُوكِ وَالْأَوْهَامِ . رَغَمَ التَّشْكِيكِ الَّذِي  
يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ . أَمَّا إِنْ كَانَ الْمُبَارِ الْإِتْبَ هُوَ حَدُوثُ تِلْكَ الْوَسَاوِسِ  
كَمَا هُوَ ظَاهِرُ حَدِيثِ « مُسْلِمٍ » عَنْ « ابْنِ مَسْعُودٍ » قَالَ : « سُئِلَ رَسُولُ  
اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْوَسْوَسةِ ، فَقَالَ : « تِلْكَ مَخْضُ  
الْإِيمَانِ » (١) قَرُبَمَا عُدَّ مِنَ الْمُشْكِلي الْمُخْجَاجِ إِلَى بَيَانٍ ، إِذْ كَبِفَ  
تَكُونُ الْوَسْوَسةُ مَخْضُ الْإِيمَانِ أَوْ عِلَالِمَةُ مَخْضِ الْإِيمَانِ ؟

وَبَيَانُهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ يُعْرَفُ بِهَا أَنْوَاعُ الْوَجْدَانَاتِ السَّيِّئَةِ  
الَّتِي تَعْتَرِي الْمَرْءَ فِي الْمَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ ، وَعَلَى أَيِّ نَوْعٍ مِنْهَا يَقَعُ  
اسْمُ الْوَسْوَسةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ .

وَالْقَوْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْوَجْدَانَاتِ عَلَى ضَرْبَيْنِ :

( أَحَدُهُمَا ) : ضَارٌّ ، بَلَّ خَطَرٌ ، يَهْدِمُ بُنْيَانَ الْإِيمَانِ . وَهُوَ مَا كَانَ  
إِبْحَاءَ بِشُبْهَةٍ مُعَيَّنَةٍ تُوجِبُ رَيْبَةً فِي أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَلَمْ تَجِدِ  
النَّفْسُ حَلًّا لِتِلْكَ الشُّبْهَةِ بَلَّ وَجَدَتْ مِنَ الْعَقْلِ تَأْمِينًا عَلَيْهَا . وَمِنْ  
الْقَلْبِ رُكُونًا إِلَيْهَا فَاسْتَرْسَلَتْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَقَرَّتْ فِيهَا ، فَهَذَا  
الضَّرْبُ لِأَنْسَمِيهِ وَسْوَسةً بَلَّ إِنْ نُسِبَ إِلَى مُصْدِرِهِ وَقَاعِلِهِ سُمِّيَ إِغْوَاءً  
وَتَضْلِيلًا . وَإِنْ نُسِبَ إِلَى مُؤَرِّدِهِ وَقَانِلِهِ سُمِّيَ غِبًا وَضَلَالًا وَذَلِكَ هُوَ

(١) « صحيح مسلم : ١١٩/١ - (١) - : كتاب الإيمان - (٦٠) - : باب : بيان الوسوسة

في الإيمان - الحديث رقم : ٢٩١١ .

سُلْطَانُ « الشَّيْطَانُ » الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : ( إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ) (١) .

( الثاني ) وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَسْوَسَةِ أَوْ حَدِيثِ (٢) النَّفْسِ ، هُوَ مَا لَمْ تَجْتَمِعْ فِيهِ تِلْكَ الصِّفَاتُ بَلْ تَجَرَّدَ مِنْهَا كُلًّا أَوْ بَعْضًا . فَمُخَالَفَتُهُ لِلضَّرْبِ الْأَوَّلِ عَلَى صُورِ ثَلَاثٍ :

١ - الصُّورَةُ الْأُولَى - : أَنَّ يُخَالِفَهُ فِي أَضْلٍ مَوْضُوعِيٍّ وَيَقْتَرِقَ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ الطَّرِيقِ . وَذَلِكَ إِذَا لَمْ يَنْتَقِلْ بِالْأُصُولِ ، بَلْ يَمَّا حَوَّلًا مِنَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي لَا يَدْعُو إِلَى الْبَحْثِ عَنْهَا إِلَّا شَهْوَةُ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْمَجْهُولَاتِ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي مُقْنَاوَلِ الْقَوْلِ ، كَكَيْفِيَّةِ وُجُودٍ رَاجِبٍ الْوُجُودَ الْمُنْشَأَ إِلَيْهَا فِي الْحَدِيثِ بِالسُّؤَالِ عَمَّنْ خَلَقَ اللَّهُ ، إِذْ مَتَى عِلْمٌ أَنَّهُ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْهَا خَالِقًا لَهُ ، فَالسُّؤَالُ عَمَّنْ خَلَقَهُ إِنْ أَخَذَ عَلَى ظَاهِرِهِ كَانَ مُتَنَافِضًا وَلَمْ يَدْخُلْ عَلَى النَّفْسِ مِنْهُ شُبْهَةٌ فِي هَذَا الْأَضْلِ . أَمَّا إِنْ كَانَ سُؤَالٌ دَهْشَةً وَاسْتِغْرَابًا وَتَطَلُّعًا إِلَى تَحْدِيدِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَإِخْصَاعِهَا

(١) سورة النحل / ١٦ : ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) من إضافة المصدر لفاعله إذا كان من داخل النفس : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مِمَّا تَوْسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ ) سورة ق / ٥٠ : ١٦ - ك - ١٧ .  
أَوْ لِمَفْعُولِهِ إِذَا جَاءَ إِلَيْهَا مِنَ الْخَارِجِ بِالْفَتْحِ « الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » سورة الناس / ١١٤ : ٤ و ٥ - ك - ٤ .

لِلتَّصَوُّرِ : كَيْفَ وَجَدَ بَغْيِرٌ مُوجِدٌ ؟ وَكَيْفَ وَجَدَ مِنْ غَيْرِ أَوَّلٍ ؟ كَمَا يُسْأَلُ عَنْ سِرِّ فِعْلِ الْكَهْرُبَاءِ كَيْفَ تُضَيُّ بِغَيْرِ نَارٍ وَكَيْفَ تُحْرَكُ بِغَيْرِ بُخَارٍ ؟ فَقَدْ خَرَجَ الْأَمْرُ عَنِ الْإِنْكَارِ وَالشَّكِّ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْأَسْرَارِ الْمَحْجُوبَةِ الَّتِي يَعْجِزُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهَا أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِذْ لَا يُمْكِنُ لِلْمُحَاطِ أَنْ يُحِيطَ بِمُحِيطِهِ وَلَا لِلْمَحْدُودِ أَنْ يَسَعَ أَكْثَرَ مِنْ حُدُودِهِ .

- الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ - : أَنْ يُوَافِقَهُ فِي الْخُطْوَةِ الْأُولَى وَيُفَارِقَهُ عِنْدَ الْخُطْوَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَذَلِكَ إِذَا تَعَلَّقَ بِالْأُصُولِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَحْيًا يَشْبُهُهُ مَحْدُودَةٌ وَلَا طَعْنًا فِي دَلِيلٍ مُعَيَّنٍ ، بَلْ مَعَ وَضُوحِ الْأَدِلَّةِ وَسَلَامَةِ مُقَدِّمَاتِهَا وَمُسَاعَدَةِ الْفِطْرَةِ السَّلْبَةِ هَا وَبَلُوغِ الْإِيمَانِ بِتَنَائِجِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مَبْلَغًا يَقْرُبُ مِنَ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ الَّذِي يُحِبُّهُ الْوَجِدَانُ إِحْسَاسَهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْبَغْضِ وَالرُّضَى وَالغَضَبِ ، مَعَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ تَسْمَعُ النَّفْسُ فِي فتراتِ غَفْلَتِهَا هَانِفًا مِنْ شَيَاطِينِ الْمَادَّةِ يَهْتَفُ بِهَا مُشْكِكًا لَهَا فِي آسَاسِ إِيمَانِهَا ، تَشْكِيكًا لَا يَتَنَمَّدُ قَوَانِينِ الْمُنَاطَرَةِ ، بَلْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ مَنْعِ الْقَضَايَا الْمُبْرَهَنَةِ مِنْ غَيْرِ خَدَشٍ لِأَدِلَّتِهَا لَا بِالْإِجْمَالِ وَلَا بِالتَّفْصِيلِ .

مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَجِيءَ « الشَّيْطَانُ » إِلَى الْإِنْسَانِ فِي صَلَاتِهِ أَوْ دُعَائِهِ وَهُوَ ذَاهِلٌ ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ تَحْتَ بِنَارِ النَّصِيحَةِ الْمَوْهَةِ قَائِلًا لَهُ :

« مَا بِأَلَا تُحَرِّكُ لِسَانَكَ بِمَا لَا تَعْبِي ؟ أَحْضَرُ قَلْبِكَ . وَقَدَّرَ مَوْقِفَكَ .  
وَأَعْبَدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ » فَإِذَا اتَّفَقَ ذَلِكَ مَرَّةً أَنَّهُ حَاوَلَ هَذَا الِاسْتِحْضَارَ  
فَلَمْ يَجِدْ مِنْ قُوَّةِ حَلَاوَةِ السَّاجِدَةِ ، وَلَمْ تُسَعِّفْهُ بَدِيهَتُهُ بِتَفْهِيمِ كَلِمَاتِ  
اللَّهِ كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَالتَّحَقُّقِ بِمَعَانِيهَا فِي الْوَصْفِ وَالثَّنَاءِ وَالرَّغْبَةِ  
وَالرَّهْبَةِ وَغَيْرِهَا وَجَدَ « الشَّيْطَانُ » إِلَيْهِ مَنْفَذًا آخَرَ ، يَقُولُ لَهُ :  
« مَا بِكَ ؟ أَمْؤِمِنْ أَنْتَ حَقًّا ؟ أَبَيَّنَ هَذَا الْإِيمَانُ وَأَنْتَ ذَا تَتَلَمَّسُهُ فَلَا  
نَجْدَهُ ؟ لَعَلَّكَ مَخْدُوعٌ عَنْ نَفْسِكَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا مُقَلَّدٌ سَمِعْتَ النَّاسَ  
يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتَ كَمَا يَقُولُونَ بِغَيْرِ بُرْهَانٍ ، أَوْ مُسْتَدِلٌّ أَخَذْتَ  
بِالظَّنِّ وَالْبَيِّنِ وَحَسِبْتَ نَفْسَكَ آخِذًا بِالْعِلْمِ وَالْيَقِينِ » . وَرَبُّمَا اسْتَطَرَّدَ  
مَعَهُ قَائِلًا : « بَلْ هُوَ ذَلِكَ . وَإِلَّا فَتَبَيَّنْ أَبَيَّنَ هَذَا الَّذِي تُكَلِّمُهُ ؟ هَلْ  
تَرَى أَحَدًا قَرِيبًا مِنْكَ فَتُنَاجِيهِ . أَوْ بَعِيدًا عَنْكَ فَتُنَادِيهِ ، أَمْ هُوَ الْخَيَالُ  
يُصَوِّرُ لَكَ حَاضِرًا مَا لَيْسَ بِحَاضِرٍ ، وَيَجْعَلُكَ تَهْذِي فِي خَلْقِكَ  
كَالَّذِي يُكَلِّمُ نَفْسَهُ ؟ وَهَلْ يَلِكُ الْأَدَلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي يُقِيمُهَا النَّاسُ  
كَافِيَةً فِي إِبْنَاتِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي تُخَاطِبُهُ ، إِنْ بَاتَا لَا يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ  
كَالْإِبْنَاتِ بِالشَّاهِدَةِ الْبَيِّنَةِ مِنَ الْمُحْتَمَلِ وَلَوْ عَلَى وَجْهِ بَعِيدٍ أَنْ تَكُونُوا  
وَاحِدِينَ فِي هَذَا الِاسْتِنْتِاجِ ، كَكُلِّبِرٍ مِنَ الِاسْتِنْتِاجَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي  
يَعْرِضُ لَهَا الْخَطَأُ ؟ » . وَهَكَذَا يَنْتَقِلُ بِهِ مِنَ التَّخْرِيطِ عَلَى « الْإِحْسَانِ »  
إِلَى التَّشْكِيكِ فِي « الْإِيمَانِ » ثُمَّ مِنَ التَّشْكِيكِ فِي الْإِيمَانِ إِلَى التَّشْكِيكِ فِي  
« الْمُؤْمِنِ بِهِ » وَهُوَ فِي كَلَا التَّشْكِيكِينِ يَعْمَدُ إِلَى مُعَاوَلَةِ مَكْنُوفَةٍ .

أَمَّا تَشْكِيكُهُ لَهُ فِي أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَمَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ « عَدَمَ الْوُجْدَانِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ الْوُجُودِ » وَهِيَ مُعَاذِلَةٌ قَدْ تَجَوَّزُ عَلَى الْعَاقِلِ ، كَمَا أَنَّ الْمُصَابَ يَبْغِضُ الْأَمْرَاضَ قَدْ يَتَّهِمُ نَفْسَهُ حِينَ يَغِيبُ عَنْهُ مَنْ شَاهَدَهُ بِإِحْتِمَالِ الْغَلْطِ فِي مُشَاهَدَتِهِ ، فَيَقُولُ : لَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ تَخَيُّلاتِ الْأَوْهَامِ . وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ بِالْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ إِذَا أُصِيبَ بِمَرَضِ الْغَفْلَةِ فَكَمَنْ إِيمَانُهُ فِي حَوَافِظِ نَفْسِهِ وَتَرَكَمَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ النُّسْبَانِ خِيَلٍ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِ تَنْبُهِهِ أَنَّهُ لَا يَجِدُ إِيمَانَهُ وَأَنَّهُ نَزَلَ مِنَ الْيَقِينِ إِلَى الظَّنِّ ، وَقَدْ يَزْدَادُ تَسَلُّطُ هَذَا الْخِيَالِ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا كَانَ عَمِيقَ الْغَفْلَةِ أَسِيرَ الظُّوَاهِرِ الْحِسِّ ، لَا يَرَى أَبْعَدَ مِنْ جِدَارِ الْقِبْلَةِ ، وَلَا يُحِسُّ أَكْثَرَ مِنْ شُبْحِ جَسْمِهِ وَصَدَى صَوْتِهِ ، فَكَانَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كُلِّمَا حَاوَلَ أَنْ يَنْقُذَ بِبَصِيرَتِهِ إِلَى بَوَاطِنِ الْأُمُورِ وَيَتَذَوَّقَ تِلْكَ الْحَقَائِقَ الْعُلْيَا وَجَدَ شِبْهًا مِنَ الصُّعُوبَةِ ، كَأَنَّمَا يُتَنَاوَسُهَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ أَوْ يَسْتَقْبِلُهَا مِنْ بَعْرِ عَمِيقَةِ الْغُورِ . فَإِذَا لَمْ يَجِدْ مَا يَطْلُبُ مِنَ الْمَشَاهِدَةِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْإِحْسَاسِ الرُّوحَانِيِّ وَقَفَ الشَّيْطَانُ يَضْحَكُ مِنْهُ قَائِلًا : « لَقَدْ صَدَقْتَ ظَنِّي فِيكَ قُلُوبًا أَنَّكَ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِكَ لَوْ جَدْتَ نَفْسَكَ بَعْدَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ فِي حُضُورٍ وَمُشَاهَدَةٍ » فَيَزْدَادُ تَوَهُُّمًا أَنَّهُ قَدْ سَلِبَ إِيمَانَهُ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، لِأَنَّمَا هُوَ عَدَمُ الْحُضُورِ لَا عَدَمُ الْحُضُورِ ، وَنَقْصُ الزِّيَادَةِ لَا نَقْصُ الْأَصْلِ . وَآبَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ أَخَذَ يَتَحَسَّنُ بِقِيَمَتِهِ وَيُرَاجِعُ بَرَاهِينَهُ

وَيَجْتَرُّهَا رُوَيْدًا رُوَيْدًا لِيَتَذَوَّقَهَا ، لَوْ جَدَّ عُقْدَةً إِيمَانِهِ وَبَيْقَةً ، وَلَا سَبَانَ لَهُ بَعْدَ الرُّجُوعِ إِلَى صَوَابِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الشُّكِّ فِي شَيْءٍ ، وَلَكِنَّهُ التَّشْكِيكُ جَعَلَهُ يَنْشُدُ ضَالَّةً هُوَ يَحْمِلُهَا فِي طَيِّبَاتِ نَفْسِهِ . وَلَعَلَّ مَا يُرْفَعُ عَنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ تُضْرِبَ لَهُ مَثَلًا يَعْرِفُ بِهِ سِرَّ هَذَا الْاِخْتِلَافِ الَّذِي يَجْعَلُهُ بَيِّنَ حَالِي قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ ، لِيُذَرِّكَ أَنَّهُ لَيْسَ رَاجِعًا إِلَى اِخْتِلَافِ الْيَقِينِ وَالظَّنِّ بَلْ رَاجِعٌ إِلَى تَفَاوُتِ طَبِيعَةِ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ فِي نَفْسِهَا وَقَرَفِ مَا بَيَّنَّهَا وَبَيَّنَ الْإِيمَانُ بِالشَّهَادَةِ : ذَلِكَ أَنَّ الْحَقَائِقَ الْغَيْبِيَّةَ مَعَ كَوْنِهَا مُشْرِقَةً بِالْبَرَاهَانِ هِيَ دَائِمًا مَحْجُوبَةٌ عَنِ الْعِيَانِ . فَكَانَتْ كَالسَّهْلِ الْمُنْتَنِعِ أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى كَالْقَمَرِ لَا يَخْلُو أَحَدٌ وَجْهَهُ عَنِ الضُّوءِ الْبَتِّ ، وَلَكِنَّهُ تَارَةً يَسْتَقْبِلُكَ بِوَجْهِهِ الْمُضْيِ وَتَارَةً يَسْتَذِيرُكَ بِهِ فَكَذَلِكَ نَحْنُ كُلَّمَا شَغَلَتْ حَوَاسِنَا بِظَوَاهِرِ الدُّنْيَا لَمْ نَشَاهِدْ نُورَ الْإِيمَانِ ، وَكُلَّمَا طَالَعَتْ قُلُوبُنَا آيَاتِ اللَّهِ أَشْرَقَ عَلَيْنَا نُورُ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ وَلَيْسَ فِي طَاقَتِنَا مَا دُمْنَا مُؤْمِنِينَ بِالْغَيْبِ أَنْ نَكُونَ فِي شُهُودٍ دَائِمٍ ، كَمَا لَيْسَ فِي طَاقَتِنَا أَنْ نَجْعَلَ الْقَمَرَ مُشْرِقًا أَبَدًا كَالشَّمْسِ ، أَوْ نَجْعَلَ الشَّمْسَ طَالِعَةً لَيْلًا وَنَهَارًا . وَبِالْجُمْلَةِ فَطَبِيعَةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ تَأْتِي أَنْ تَكُونَ كَالْإِيمَانِ بِالشَّهَادَةِ ، إِذْ : (بَيْنَهُمَا بَرَزُخٌ لَا يَبْغِيَانِ) <sup>(١)</sup> . نَعَمْ إِنَّ الْمَدَى بَيْنَهُمَا قَدْ يَقْصُرُ جِدًّا حَتَّى لَيْكَادَانِ يَلْتَقِيَانِ لَكِنْ دَوَامَ هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الْمَحَالِ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَعْجُونٌ بِطَبِيعَةِ النَّسْيَانِ .



وَأَمَّا اسْتَطْرَادهُ إِلَى النِّشْكِيكِ فِي أَصْلِ الْأُصُولِ وَحَقِيقَةِ الْحَقَائِقِ وَهِيَ وُجُودُ الْمَعْبُودِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ « كُلَّ مَا لَمْ يَفْعَ تَحْتَ الْحِسِّ بِطَرِيقِ مُبَاشَرٍ جَازٍ أَنْ يَكُونَ وَهْمًا وَخَيَالًا » (١) وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْبَرَاهِينُ .  
فَهِىَ مُغَالَطَةٌ أَشَدُّ تَهَانًا مِمَّا قَبْلَهَا ، إِذْ لَا يَقْبَلُ عَاقِلٌ أَنْ يُقَالَ عَنْهُ إِنَّ عِلْمَهُ لَا يُجَاوِزُ حُدُودَ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَشَمِّهِ وَذَوْقِهِ وَلَمْسِهِ ، فَفِيمَ إِذَا يَنْتَفِعُ بِعَقْلِهِ ؟ وَكَيْفَ يُؤْمِنُ بِالْحِسَابِ وَالْمَنْطِقِ وَسَائِرِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ أَمْ كَيْفَ يُؤْمِنُ « بِالْجُغْرَافِيَا » وَالتَّارِيخِ فِيمَا لَمْ يَشْهَدْ مِنْ الْأَقْطَارِ النَّائِبَةِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ؟ مَعَ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْإِيمَانِ بِالْأَنْبِيَاءِ الْمُتَوَاتِرَةِ مِنْ تَصَرُّفِ عَقْلٍ وَهُوَ الْجَزْمُ بِاسْتِحَالَةِ تَوَاطُّوِ النَّاقِلِينَ عَلَى الْكُذْبِ .  
بَلْ كَيْفَ يُؤْمِنُ بِعَدَاوَةِ الْعَدُوِّ وَصَدَاقَةِ الصَّدِيقِ وَهُوَ لَمْ يَشُقَّ عَنْ قَلْبِهِ . كَيْفَ يَعْرِفُ عَقْلُ الْعَاقِلِ وَجْهَ الْجَاهِلِ وَهُوَ لَمْ يَطْلُعْ عَلَى تَضَارِيصِ خَوْفِهِ ؟ وَكَيْفَ يَقُولُ إِنَّهُ رَأَى يَدَ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ مَسْنُورَةً فِي قُفَّازِهَا ، كَيْفَ يُؤْمِنُ بِحَيَاةٍ مَنْ يَكَلِّمُهُ مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ وَهُوَ لَا يَرَى شَخْصَهُ ؟  
كَيْفَ يُؤْمِنُ بِالْكَهْرِبَاءِ وَهُوَ لَا يَرَى إِلَّا آثَارَهَا بَلْ كَيْفَ يُؤْمِنُ بِحَيَاةٍ مَنْ يَشَاهِدُهُ وَيَقْدِرَتُهُ وَعِلْمُهُ وَهُوَ لَا يَرَى إِلَّا مَظَاهِرَ تِلْكَ الْقُوَى ؟

هَذِهِ الْفِكْرَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ إِنَّ عَرَضَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ قَبْلَهَا غَرَبٌ يَفْتَلِسُهُ مَرَّةً الْخَوَاطِرُ الْوَقْنِيَّةُ . كَثِيرٌ مِنْ الْوَسْوَاسِ . وَلَكِنَّمَا سَعَى لِحُلِّهَا كَمَا تَعَالَى الشُّبُهَاتُ الْحَقِيقِيَّةُ . لَأَنَّهُ هِيَ كَذَلِكَ فِي بَعْضِ النَّفُوسِ ، وَلَقَدْ عَظُمَتْ بِهَا فِتْنَةُ الْمَلَايِكَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَأَضَلُّوا بِهَا كَثِيرًا وَصَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ - فَلَا تَعْلَمُوا إِذَا طَالَ الْكَلَامُ فِي تَقْدِيمِهَا .

ولماذا يَسْتَعِدُّ لِلِقَاءِ الْجِيُوشِ قَبْلَ قُدُومِهَا وَلِتَرْمِيَهُ الدَّارِ قَبْلَ سُقُوطِهَا  
وَلِتَوَقِّيَ الْأَمْرَاضَ قَبْلَ مُجُومِهَا ؟ فَإِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِهَذَا كُلِّهِ ثُمَّ يَزْعُمُ  
أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا بِمَا يَرَاهُ وَيَلْمِزُهُ فَهُوَ مُتَنَاقِضٌ فِي دَعْوَاهُ ، وَإِنْ كَانَ  
لَا يُؤْمِنُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالنُّزُولِ إِلَى رُتَبَةِ الْحَيَوَانِ  
الْأَعْجَمِ ، بَلْ إِلَى أَدْنَى مِنْهُ رُتَبَةً ، فَإِنَّ الْحَيَوَانَ يَعْطَلُهُ الْغَرِيزِيُّ أَوْ  
الْوَرَائِيَّ قَدْ يُؤْمِنُ بِمَا لَا يَرَاهُ ، اسْتِدْلَالًا بِمَا يَرَى . فَالْفَارُّ يُدْرِكُ عِدَاوَةَ  
الْهَرِّ ، وَالشَّاةُ تَعْرِفُ عِدَاوَةَ الذَّنْبِ ، وَالْكَلْبُ يَفْهَمُ مِنْ إِحْسَانِ صَاحِبِهِ  
إِلَيْهِ مَعْنَى الْعَطْفِ وَالرَّحْمَةِ ، فَيَتَعَلَّقُ بِهِ وَبِكَافِيَتِهِ بِالْوَفَاءِ وَالْأَمَانَةِ .

وَلَوْ أَنَّ الْخَطَأَ فِي بَعْضِ الِاسْتِنَاجَاتِ الْعَقْلِيَّةِ لَفَقَدَهَا شَرَائِطُ النَّظَرِ  
الصَّحِيحِ يُوجِبُ التَّشْكِيكَ فِي كُلِّ حُكْمٍ عَقْلِيٍّ لَجَازٍ مِثْلُهُ فِي الْعُلُومِ  
الْحِسِّيَّةِ أَيْضًا لِوُجُودِ الْعَلَطِ فِي بَعْضِ الْحِسِّ ، كَرَأْيِ الْمَرْكَبِ  
السَّرِيعِ بَرَى الْأَشْجَارَ وَالْمَنَازِلَ تَدُورُ حَوْلَهُ . فَمَنْ وَسِعَهُ لِذَلِكَ أَنْ  
يَتَشَكَّكَ فِي جِسْمِهِ وَعَقْلِهِ مَعَ فَقْدِ خَرَجٍ إِلَى الْجَهْلِ الْمُطْلَقِ بَلِ الْجُنُونِ  
الْمُطْبِقِ . وَيُثَلُّ هَذَا لَا يَسْتَحِي أَحَدٌ أَنْ يَضْفَعَهُ ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَغْضَبَ  
مَنْ يَضْفَعُهُ إِذْ لَعَلَّ خُدَعَةَ جِسْمِهِ وَخَانَتَهُ وَهَمُّهُ عَلَى أَنَّهُ إِنْ سَاغَ التَّشْكِيكَ  
يَحْتَلُّ ذَلِكَ فِي بَعْضِ (١) النَّظَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ ، فَكَيْفَ يَسُوغُ فِي

(١) هُنَالِكَ نَظَرِيَّاتٌ عِلْمِيَّةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّغْيِيرِ وَالتَّحْدِيدِ ، كَبَعْضِ نَظَرِيَّاتِ الطَّبِّ وَالْفَلَكِ  
وَالطَّبِيعَةِ وَالْكِيمَاءِ فِيهَا مِثْلُهَا يَسُوغُ الْوَقُوفُ عَنْهُ كُلُّ خَاطِرٍ مُشَكِّكٍ يُقَالُ فِيهِ  
أَصْرَابٌ هِيَ أَمْ خَطَأٌ بَلْ يَحْتَسُنُ افْتِسَاحُ الصَّدْرِ لِكُلِّ بَحْثٍ يُطْلَبُ بِهِ اسْتِفْهَاءٌ =

الاستدلال بِالْآثَارِ الْحَسْبَةِ عَلَى وُجُودِ مَصْدَرٍ لَهَا ، وَبِعَظْمَةِ تِلْكَ الْآثَارِ عَلَى قُدْرَةِ ذَلِكَ الْمَصْدَرِ ، وَبِاخْتِلَافِهَا عَلَى اخْتِيَارِهِ وَبِإِتِّلَافِهَا عَلَى وَحْدَتِهِ ، وَبِدَقَّةِ نِظَامِهَا عَلَى سَعَةِ عِلْمِهِ ؟ إِنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ الاستدلالِ لَيْسَ مَرْكُوزًا فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ وَحْدَهُ ، بَلْ فِي فِطْرَةِ الْحَيَوَانَ كُلِّهِ . حَتَّى إِنَّ الْبَهِيمَةَ لَتَسْمَعُ الصَّوْتَ فَتَدْعُرُ مِنْهُ عِلْمًا بِأَنَّ لَهُ مَصْدَرًا وَأَنَّ وِرَآءَهُ سَبَبًا مُؤَثِّرًا .

الْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ إِن شَرَسَتْ لِحِظَةً فَإِنَّمَا تُشَوِّشُ عَلَى مَنْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى نَفْسِهِ فِي تَحْقِيقِ عَقَائِدِهِ وَإِنَّمَا اسْتَعْدَّهَا مِنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الْمُتَكَلِّمُونَ لِغِيَةِ خَاصَةٍ وَهِيَ فِتْنَةُ الْحُكَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ ، إِجَابَةُ

١ - الْعَقْلُ فِيهَا مِنْ جَدِيدٍ ، فَتَعَسَى أَنْ يَنْقُصَ الْبَحْثُ فِيهَا الْيَوْمَ مَا أَبْرَزَ مِنْهَا بِالْأَمْسِ وَأَنْ يَهْدِمَ الْغَدُ مَا بَنَاهُ الْيَوْمَ . لَكِنْ هُنَاكَ إِلَى جَانِبِ هَذِهِ النِّظَرِيَّاتِ نِظَرِيَّاتٌ أُخْرَى لَا تَتَّبَعُ وَلَا تَتَّبَعُهَا كُنْظَرِيَّاتُ الْحِسَابِ وَالْمُهَنْدَسَةِ وَالْمَنْطِقِ ، فَهَلْ يَقْبَلُ عَاقِلٌ أَنْ يَسْمَعَ تَشْكِيكًا فِي قَاعِدَةِ النَّاسِبِ ، أَوْ قَاعِدَةِ زَوَايَا الْمُثَلَّثِ ، أَوْ قَاعِدَةِ التَّنَاقُصِ وَالْمَعْكَسِ ؟ ثُمَّ هَلْ هُنَا أَوَّلِيَّاتٌ ، وَهَلْ هُنَا نِظَرِيَّاتٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الْأَوَّلِيَّاتِ هِيَ أَحَقُّ بِالْأَلَا تُصْنَعِي أَذُنُ الْغُلْبِ إِلَى خَاطِرٍ يُشَكِّكُ فِيهَا ، لِأَنَّهَا قَدْ اسْتَجَابَتْ لَهَا الْعُقُولُ بِقَطَرِهَا ، وَهِيَ مَعْرُوضَةٌ فِي سِنَخِيهَا وَفِرَارَاتِهَا . فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْظُرَ عَاقِلٌ فِي مِرَاةٍ نَفْسِهِ إِلَّا وَجَدَهَا ، وَلَا تُصَدِّقُ دَعْوَى عَاقِلٍ أَنَّهُ يُعْتَشِّهَا فَلَمْ يَتَّيَّنْ إِلَى الصَّوَابِ فِيهَا لِأَنَّهُ لَا يَنْجُو مِنْ إِدْرَاكِهَا إِلَّا الْإِغْمَاضُ عَنْهَا ، وَمَتَى تَوَجَّهْتَ إِلَىهَا النَّفْسُ بِإِعْلَاصٍ وَهَدْيَةٍ لِنَبْهَاتِهَا بِالْآيَاتِ السَّاطِعَةِ وَجَبَّ أَنْ تُعَدَّ أُمُورًا مَعْرُوضًا مِنْهَا ، وَأَنْ يُعَدَّ كُلُّ تَشْكِيكٍ فِيهَا دَاحِضًا بِنَعْبِهِ . ذَلِكَ مِثْلُ الْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ : ( وَالَّذِينَ يُجَاجِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ ) - سُورَةُ الشُّورَى / ٤٢ : ١٦ - ك - .

لِسَهْوَةِ عُقُولِهَا وَدُعَاءِهَا بِالنُّوعِ الَّذِي تَأَلَّفَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ . فَلَمَّا أَطَالُوا فِيهَا النُّجْعَةَ وَتَكَثَّفُوا الْمُقَدَّمَاتِ الْمُرَكَّبَةِ وَالْبُحُوثِ الْمُعَقَّدَةَ صَوَّرُوا الْمَسْأَلَةَ بِصُورَةِ النُّظَرِيَّاتِ الْعَوِيصَةِ الْقَابِلَةِ لِلْأَخْذِ وَالرَّدِّ وَهِيَ مِنْ أَقْرَبِ الصُّرُورِيَّاتِ إِلَى الْحِسِّ وَالْفِطْرَةِ كَمَا ذَكَرْنَا ، لِذَلِكَ عَرَفَهَا « الْعَرَبُ » فِي أَشَدِّ جَاهِلِيَّتِهِمْ ، وَأَذَرَكَهَا أَهْلُ الْأَدْبَانِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنَحْلِهِمْ ، بَلِ الْمَادِّيُونَ فِي قَرَارَةِ أَنْفُسِهِمْ جَازِمُونَ بِأَمْنِهَا وَلَكِنْ غَفَلَتَهُمْ لَمَّا اسْتَحْكَمَتْ وَشَهَوَاتُهُمُ الْعَاجِلَةُ لَمَّا اسْتَحْوَذَتْ شُغِلَتْ أَنْظَارُهُمْ بِالْحُظُوظِ الدُّنْيَا وَصَرَفَتْهَا عَنِ الْحَقَائِقِ الْعُلْيَا حَتَّى بَعُدَ الْفَهْمُ بِهَا وَصَارَ ضَرُورِيَّتُهَا مُحْتَاجًا إِلَى التَّنْبِيهِ <sup>(١)</sup> إِلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ النَّظَرِيُّ إِلَى الْاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ .

أَمَّا مَنْ كَانَ بِأَوْيَ عَقَائِدِهِ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ مِنْ مُشَاهِدَاتِهِ وَتَأَمُّلَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ فِي آيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ الصَّوْتِ الْمُزْعِجَ الَّذِي يَنْتَعِقُ بِهِ الشَّيْطَانُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ - أَنْ يَجِدَ مِنْ يَقْظَةٍ رُوحِهِ وَصَفَاءِ إِحْسَاسِهِ مِذْبَةَ يَطْرُدُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ النُّشْوِيشَ ، بَلْ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ ضَمِيرِهِ مُنَادِيًا يُنَادِي قَائِلًا :

« أَتَسْأَلُ أَتَيْنَ هَذَا الَّذِي أَنَا جِيهِ ! إِنَّهُ لَيْسَ شَيْئًا يُسْتَقْبَلُ بِالْأَيْدَانِ أَوْ يُعْمَلُ فِي عَرْضِ الْجُدْرَانِ ، فَأَفْرَحُ إِنْ تَعَلَّقَ بِهِ خِيَالِي كَأَنَّهُ مَائِلٌ

(١) مِنْ هُنَا سَمِعِي « الْقُرْآنَ » ذِكْرًا ، وَسَمِعْتِ الْآيَاتِ تَذَكُّرًا ، وَالْأَنْبِيَاءَ مُذَكِّرِينَ وَالْأَهْلِيَّةَ تَذَكُّرًا .

أَمَّا بِي حَاضِرٌ مَحْدُودٌ، أَوْ أَخْرَجَ إِنْ لَمْ أَحْسَ بِهِ كَأَنَّهُ غَائِبٌ مَفْقُودٌ  
 كَلَّا : لَا شَأْنَ لِي بِهَذَا الَّذِي بَغِيبٌ وَيَحْضُرُ، فَمَا ذَاكَ إِلَّا الْأَخِيلَةُ  
 وَالْأَوْهَامُ . وَإِنَّمَا أَنَا بِي حَاضِرٌ لَا يَغِيبُ، لَكِنَّ شَأْنَهُ فِي حُضُورِهِ  
 عَجِيبٌ ! فَهُوَ لَيْسَ بِالْقَرِيبِ الَّذِي يَنْحَصِرُ فَيَحْدُ، وَلَا بِالْبَعِيدِ الَّذِي  
 يُقْتَسَرُ عَنْهُ فَيُفْتَقَدُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبٌ جَدًّا بِسُلْطَانِهِ، بَعِيدٌ جَدًّا  
 بِعُلُوِّ شَأْنِهِ . هَلْ أَطْلَعَكَ عَلَيْهِ ؟ إِنَّهُ لَا يَذُرُّكَ الطَّرْفُ . هَلْ أَصَفُهُ  
 لَكَ ؟ إِنَّهُ لَا يَكْشِفُ عَنْهُ الْوَصْفُ . هَلْ أَمَثَلُهُ لَكَ ؟ إِنَّهُ لَا يُبْتَخِلُ  
 بِذَاتِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ يَقْدِرُ عَظَمَةَ مُلْكِهِ تَتَمَثَّلُ عَظَمَةُ صِفَاتِهِ، فَيَتَصَوَّرُ  
 مُحِيطًا بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ . وَأَخِيرًا هَلْ أَذَلُّكَ عَلَيْهِ ؟  
 « انْظُرْ مَعِيَ أَلَسْتُ تَرَى هُنَالِكَ يَدًا تَعْمَلُ مِنْ وَرَاءِ الْأَيْدِي كُلِّهَا،  
 لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ سُلْطَانِهَا، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ رَدَّ قَضَائِهَا، وَلَا مُضَاهَاةَ  
 عَمَلِهَا . أَلَا تَرَى تِلْكَ الْيَدَ ؟ أَمَّا أَنَا فَأَكَادُ أَرَاهَا مِنْ وَرَاءِ سِتْرِ رَقِيقٍ  
 كُلَّمَا أَطَّلَعْتُ مِنْ غُرْفَتِي وَأَلْقَيْتُ نَظْرِي بَعِيدًا عَنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ .  
 فَلِذَا مَا عُدْتُ إِلَى عَمَلِ الْإِنْسَانِ كِدْتُ أَرَاهَا أَيْضًا لَكِنَّ فِي « قُعَازِ »  
 الْإِنْسَانِ .

« نَعَمْ هَاهِي ذِي تُحَرِّكُ الْعَالَمَ كُلَّهُ مِنْ حَوْلِنَا : تَرْفَعُ وَتَخْفِضُ،  
 وَتَبْسُطُ وَتَقْبِضُ، وَتُعِزُّ وَتُذِلُّ، وَتَنْصُرُ وَتَخْذُلُ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُ  
 النَّاسِ بِهَا لَا يَفْغَرُونَ أَمَّا هُنَالِكَ فَإِنَّهَا بِأَدْبَةٍ كَأَنَّهَا لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ

أَتَرَى آيْنَ ؟ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي اللَّيْلِ إِذَا سَجَا ، وَفِي النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ، وَفِي النُّجُومِ الطَّالِعِ إِذَا هَوَى أَوْ أَفَلَ ، وَفِي الشَّهَابِ النَّاقِبِ كُلَّمَا خَبَا أَوْ اشْتَعَلَ . أَلَمْ تَرَهَا بَعْدُ ؟ ، أَفَلَا تَرَاهَا فِي الرَّعْدِ إِذَا قَصَفَ وَفِي الْبَرْقِ إِذَا خَطَفَ ، وَفِي الْقَمَرِ إِذَا خَفِيَ ، وَفِي الشَّمْسِ إِذَا كَسَفَتْ ، وَفِي الرِّيحِ إِذَا عَصَفَتْ ، وَفِي النَّسِيمِ إِذَا سَرَى ، وَفِي الْبَحْرِ إِذَا جَرَى ، أَلَا تَرَاهَا فِي الْحَيِّ يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَيِّتُ ، وَفِي الْمَيِّتِ يَخْرُجُ مِنْهُ الْحَيُّ ، وَفِي ذَلِكَ الْمَاءِ الْمُهَيَّنِ يَصِيرُ إِلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ . وَفِي هَذَا الرَّجُلِ الْعَظِيمِ بَصِيرٌ خَبِرًا بَعْدَ عَيْنٍ . أَلَا تَرَاهَا فِي تِلْكَ الْجَبُوشِ الْجَرَارَةِ مِنْ أَسْرَابِ الطَّيْرِ ، وَحَيَوَانِ الْبَحْرِ ، وَأَمَمِ الْوَحُوشِ ، وَالْحَشَرَاتِ ، وَالْهَوَامِ . وَفِي الْجَرَائِمِ السَّابِحَةِ فِي الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالْأَجْسَامِ ! . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعَوَالِمِ الظَّاهِرَةِ وَالْخَفِيَّةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَّا آيْنَ مَسَرَّاهَا وَمَأْوَاهَا ، وَلَا يَفْقَهُمْ لُغَتَهَا وَلَا يُدَبِّرُ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا وَنِظَامَ عَمَلِهَا . أَلَا تَرَاهَا فِيمَا يَقَعُ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ وَفِيمَا تُشَاهِدُهُ الْأَرْوَاحُ مِنَ الرُّؤْيِ الصَّادِقَةِ وَفِي خَطِّ الْحَاسِبِينَ ، وَكَلِّبِ الْمُتَجَمِّينَ ، وَعَجْزِ الْمُطْطَبِّينَ ، ثُمَّ فِي عَجْزِ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ( وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ) (١) .

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ (٢)

(١) سورة الحج / ٢٢ : ٧٣ - م - ع . (٢) «ديوان أبي العتاهية : ١٠٤» .

« بَلْ مَالِي أَشِيرُ إِلَيْهِ بَعِيداً عَنِّي وَهُوَ مِنِّي قَرِيبٌ ، بَلْ أَقْرَبُ إِلَيَّ  
 مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، هَذِهِ يَدُهُ أَكَادُ أَحْسَهَا آخِذَةً بِنَاصِيَتِي ، مُصَرَّقَةً  
 لِسَمْعِي وَبَصَرِي ، مُقَلَّبَةً لِحَرَكَاتِ قَلْبِي وَخَطَرَاتِ نَفْسِي ، مُدَبَّرَةً  
 غِذَاءَ رُوحِي وَجِسْمِي ، مِنْ مَقَرِّقِ رَأْسِي إِلَى أَحْمَصِ قَدَمِي ، وَمِنْ أَطْرَافِ  
 شَعْرِي وَغُضُونِ جِلْدِي ، إِلَى أَعْمَاقِ عَظْمِي وَمُخَيِّ وَعَصَبِي ، كُلُّ ذَرَّةٍ  
 مِنْهُ يَجْرِي إِلَيْهَا رِزْقُهَا الْمَقْسُومُ وَنَصِيبُهَا الْمَعْلُومُ مِنْ حَيْثُ لَا أُرِيدُ  
 وَلَا أَشْعُرُ . يُمَسِّكُ نَفْسِي حِينَ يَشَاءُ ، وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ ،  
 وَيُرْسِلُهَا حِينَ يَشَاءُ وَمَا يُرْسِلُ فَلَا مُمَسِّكَ لَهُ ، أَعَزُّمُ الْقَرِيبَةَ قَبْضِصُومَهَا ،  
 وَرُبَّمَا أَحْلَمَهَا فَيُبْرِئُهَا ، أَعْرِفُ الشَّيْءَ ثُمَّ أَنْكِرُهُ وَقَدْ أَنْكِرُهُ ثُمَّ أَعْرِفُهُ .  
 أَحِبُّ الشَّيْءَ ثُمَّ أَكْرَهُهُ وَتَارَةً أَكْرَهُهُ ثُمَّ أَحِبُّهُ فَذَلِكَ الشَّيْءُ الَّذِي  
 يَمْلِكُ مِنِّي مَا لَا أَمْلِكُ ، وَلَا أَمْلِكُ شَيْئاً مِمَّا يَمْلِكُ ، إِلَيْهِ أَوَجُّهُ قَلْبِي  
 وَأَفْوِضُ أَمْرِي وَبِهِ أَسْتَعِينُ فِي حَاجَتِي ، وَلَا أَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، وَلَا أُعْطِي  
 مِنْ نَفْسِي الْمَذَلَّةَ إِلَّا لَهُ : ( الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ بِهَدْيَيْنِ ، وَالَّذِي هُوَ  
 يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُبْمِثُنِي ثُمَّ  
 يُحْيِينِي ) (١) .

« وَبَعْدُ ، فَمَا ظَنُّكَ فِي تِلْكَ الْقُدْرَةِ الَّتِي فَوْقَ الْقَدْرِ ؟ هَلْ عَسَيْتَ  
 أَنْ تَقُولَ إِنَّهَا قُوَّةٌ قَاهِرَةٌ حَقًّا ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ شَيْئاً وَرَاءَ قُوَّةِ الطَّبِيعَةِ

الْمَادِيَّةِ ؟ أَتَنْظُرُ ذَلِكَ ؟ تَأْشَدُّتُكَ ! نَبِّئْنِي مَاذَا تَفْهَمُ مِنْ كَلِمَةِ :  
 « الطَّبِيعَةِ » فَإِنِّي لَسْتُ أَفْهَمُ مِنْهَا إِلَّا مَجْمُوعَةً تِلْكَ الْخَصَائِصِ  
 وَالسُّنَنِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا الْمَادَّةُ فِي وُجُودِهَا ، وَهَذِهِ الْخَصَائِصُ وَإِنْ  
 صَلُحَتْ مَبْدَأٌ لِأَثَارِهَا لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمَبْدَأُ الْأَوَّلُ لِلْمَكَائِنَاتِ  
 كُلِّهَا حَتَّى الْمَادَّةُ الَّتِي يَقُومُ هِيَ بِهَا ، لِأَنَّ مَنَزِلَتَهَا مِنَ الْمَادَّةِ مَنَزَلَةٌ  
 الصِّفَةِ مِنْ مَوْصُوفِهَا ، وَلَكِنْ تَكُونُ صِفَةُ الشَّيْءِ اللَّاحِقَةِ بِهِ الْمُسْتَنْدَةُ  
 إِلَيْهِ مَبْدَأٌ لَهُ إِلَّا لَوْ كَانَ نَوْبُكَ الَّذِي تَلْبَسُهُ أَوْ شَكْلُكَ الَّذِي أَنْتَ  
 عَلَيْهِ سَبَبًا فِي وُجُودِكَ ، فَإِنَّ مَا لَا قِيَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ ؟ كَيْفَ يَقُومُ غَيْرُهُ  
 بَلْ كَيْفَ يَقُومُ مَا هُوَ مُخْتَاجٌ إِلَيْهِ وَلَا قِيَامَ لَهُ هُوَ بِنَفْسِهِ ؟ فَهَذِهِ  
 السُّنَنُ الْكُونِيَّةُ إِذَا مَفْعُولَةٌ مَجْعُولَةٌ لَا فَاعِلَةٌ مُسَيِّطَرَةٌ .

« وَلَكِنْ لَعَلَّكَ تَعْنِي شَيْئًا آخَرَ ، تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ ذَاتَ الْمَادَّةِ  
 وَمَاهِيَّتَهَا اقْتَضَتْ وُجُودَهَا ، وَاقْتَضَتْ أَنْ يَكُونَ وُجُودُهَا عَلَى هَذَا  
 النُّحْوِ الْمُنَاسِدِ إِذَا لَكَائَتْ الْمَادَّةُ بِأَوْضَاعِهَا وَاجِبَةِ الْوُجُودِ لِذَاتِهَا ،  
 مُسْتَعِجِلَةً الْعَدَمِ لِذَاتِهَا ، فَيَالَيْتَ شِعْرِي أَيُّ مُحَالٍ عَقْلِي كَانَ يَقَعُ  
 لَوْ لَمْ تُوجَدْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، أَوْ لَوْ وَجَدَتْ عَلَى أَوْضَاعٍ  
 غَيْرِ مَا هِيَ عَلَيْهِ ؟ أَكَانَ يَجْتَمِعُ النِّفْيَضَانِ ، أَمْ كَانَ يَكُونُ الشَّيْءُ  
 غَيْرَ نَفْسِهِ ، أَمْ عَيْنَ غَيْرِهِ ، أَمْ مَاذَا ؟ » .

« ثُمَّ لَوْ كَانَ وُجُودُهَا مُقْتَضَى ذَاتِهَا لَكَائَتْ شَيْئًا وَاحِدًا مُتَشَابِهًا ،



لأنَّ الذات الواحدة الساذجة لا تقتضي الأضداد والنقائص . فَمَا بَالُنَا نَرَى طَبِيعَةَ كُلِّ جِنْسٍ مِنْهَا تُخَالِفُ طَبَائِعَ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ ، وَطَبِيعَةَ النَّوعِ مِنَ الْجِنْسِ تُخَالِفُ طَبَائِعَ بَاقِي الْأَنْوَاعِ ، بَلْ لِكُلِّ فَرْدٍ وَلِكُلِّ عَضْوٍ وَطَبِيقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ يُؤَدِّيهَا غَيْرَ وَطَبِيقَةِ الْعُضْوِ الْآخَرِ ؟ فَاَلَمْأَ لَا يُحْرِقُ ، وَالنَّارُ لَا تُطْفِئُ ، وَالْحِمَارُ لَا يُغَرَّدُ ، وَالْعَصْفُورُ لَا يَنْهَقُ ، وَالْأَذُنُ لَا تَبْصُرُ ، وَالْعَيْنُ لَا تَسْمَعُ ، وَالْإِنْسَانُ لَا يُولَدُ مَا شِئاً مُسْتَقِلاً بِنَفْسِهِ ، وَفَرَحُ الدَّجَاجَةِ يَخْرُجُ مُسْتَقِلاً عَنِ أُمِّهِ ، وَفَرَحُ الْحَمَامَةِ لَا يَسْتَعِينِي عَنْهَا إِلَّا بَعْدَ مُدَّةٍ ، ( وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنِي عَلَى بَطْنِيهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنِي عَلَى أَرْبَعٍ ) (١) وَهَكَذَا تَخْتَلِفُ الْكَائِنَاتُ الْعُلُويَّةُ فِي أَحْجَامِهَا وَأَلْوَانِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَمَدَارَاتِهَا اخْتِلَافاً كَبِيراً .

« فَإِنْ ذَهَبَتْ إِلَى أَنَّ مَاهِيَةَ الْمَادَّةِ أَمْرٌ مُرَكَّبٌ مِنْ عَنَاصِرَ مُتَقَاوِنَةٍ ، وَأَنَّ كُلَّ عُنْصُرٍ مِنْهَا يَقْتَضِي لِذَاتِهِ نِظَاماً خَاصّاً لَا يَخْرُجُ عَنْهُ فَقَدْ أَحَلَّتْ ، لِأَنَّ الْمُرَكَّبَاتِ لَا يَكُونُ وجودُهَا مُقْتَضِي ذَاتِهَا ، إِذْ هِيَ مَسْبُوقَةٌ بِأَجْزَالِهَا الْمُقَوِّمَةِ لَهَا ، مُحْتَاجَةٌ إِلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا لِحُصُولِ هَيْئَتِهَا التَّرَكِيبِيَّةِ ، وَالْمَسْبُوقُ يَغْيَرُ أَوْ الْمُحْتَاجُ لِيَغْيَرُ لَا يَكُونُ وَجُودُهُ مُقْتَضِي ذَاتِهِ ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عِلَّةٍ أُخْرَى . وَمَعَ ذَلِكَ نَسْأَلُ : « لِمَاذَا

لَا تَطْرُدُ الطَّبِيعَةَ الْوَاحِدَةَ بِالْوَرَاثَةِ فِيمَا تَنَاسَلَ مِنْهَا، بَلْ كَثِيرًا مَا تَتَخَلَّفُ . فَالْبَصِيرُ يَلِدُ أَعْمَى ، وَالْأَعْمَى يَلِدُ بَصِيرًا ، وَالْجَاهِلُ يُشْجِبُ عَالِمًا ، وَالذَّكِيُّ غَيْبًا ، وَالنَّقِيُّ فَاجِرًا ، وَالْفَاجِرُ تَقِيًّا » -  
 نَقُولُ : « لِمَاذَا هَذَا التَّخَلُّفُ وَذَلِكَ الْاِخْتِلَافُ مَعَ أَنَّ مَا ثَبَتَ لِلشَّيْءِ بِذَاتِهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ وَلَا أَنْ يَخْتَلِفَ ؟ » بَلْ لِمَاذَا نَرَى الطَّبِيعَةَ الْوَاحِدَةَ فِي نَفْسِهَا قَدْ تَنْقَلِبُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ ؟ فَلَقَدْ حَدَّثَنَا التَّارِخُ الصَّادِقُ بِانْقِلَابِ الطَّيْنِ طَيْرًا عَلَى يَدِ « عِيسَى » ، وَانْقِلَابِ الْعَصَا حِمَةً تَسْعَى عَلَى يَدِ « مُوسَى » ، وَالنَّارِ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى « إِبْرَاهِيمَ » ، - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - . بَلْ حَدَّثَنَا الْمُشَاهِدَةُ - وَهِيَ أَقْرَبُ إِقْنَاعًا لِلْمُجَادِلِ - بِأَنَّ دَوْدَةَ الْقَرْزِ الرَّاحِفَةَ مَتَى تُرِكَتْ وَشَأْنُهَا انْقَلَبَتْ فَرَأْسًا يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ ، وَهَذِهِ سُنَّةٌ نَرَاهَا فِيهَا بِاطْرَادٍ . فَإِنَّ مُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ النَّوَاعِيَةِ لَوْ كَانَ مَا تَقْضِي بِهِ وَاجِبًا لِذَاتِهَا ١٩ .

« أَمَا إِذَا نَزَلَتْ عَنْ دَعْوَى الْوُجُوبِ الذَّاتِيِّ وَاعْتَرَفَتْ بِأَنَّ الْمَادَّةَ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ تُوْجَدَ ، وَأَلَّا تُوْجَدَ وَأَنَّهَا حِينَ وُجِدَتْ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ تُوْجَدَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ ، ثُمَّ قُلْتَ : « وَلَكِنَّهَا هُكَذَا وَوُجِدَتْ مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقًا وَهَكَذَا اخْتَلَفَتْ أَنْوَاعُهَا مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقًا ، لِأَنَّهَا لَمَّا وُجِدَتْ تَحَرَّكَتْ فَأَخَذَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا شَكْلًا مَا ، وَتَبَوَّأَ مَكَانًا مَا ، مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقًا ، فَاخْتَلَفَتْ مَظَاهِرُهَا تَبَعًا لِاخْتِلَافِ تِلْكَ الْبَيِّنَاتِ

والظروف التي أحاطت بها ، وربما تغلب بعضها على بعض مصادقة  
واتفاقاً أيضاً ، فهذا كلام يحتمل معنيين أحدهما أشد بطلاناً من الآخر :  
فأما إن كان معناه أنها وجدت وحدث فيها ما حدث هكذا ترجيحاً  
بغير مرجح (١) وفعلًا بغير فاعل ولا سبب أضلاً ، فذلك ما تنكره  
قواعد (٢) الماديين أنفسهم ، بل تنبذه عقول الناس والبهايم :  
( أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ) (٣)

وأما إن كان معناه أنها حدثت وتنوعت بسبب إلا أن هذا السبب  
ليس قوة ذات شعور واختيار وذات تدبير وحكمة ، بل شيء ما اتفق  
ترجيحه لجانب من جوانب الأمكان ، فهذا اعتراف في الجملة بوجود  
مؤثر ليس من قبيل ذات المادة وماهيتها بل هو أمر خارج عنها . وهذه  
خطوة في طريق الحق فهل تزعم بعد ذلك أنني أنا وأنت وسائر هؤلاء  
الناس الأحياء المفكرين أثر شيء مجرد عن الحياة والتفكير ؟ يا للمنطقي !

(١) هناك فرق بين الترجيح بغير مرجح والترجيح بغير مرجح : فالأول  
هو أن يكون للشيء طرفان ممكنان فيتفضل أحدهما بغير موجب .  
والثاني أن يكون للشيء طرفان ممكنان فيوجد أحدهما بموجب لا يثبت  
عمله على حكمة ، بل على مجرد الاختيار والتحكم . والحال عقلًا  
هو الأول أما الثاني فإنه يقع من غير العقل ومن العقلاء في بعض  
الأحوال كما تقدم ( ص ٢٤٩ ) .

(٢) من الفوائين الأساسية في علم الطبيعة والكيمياء هذا النص : « المادة  
لا تحدث من تلقاء أنفسها » .

(٣) سورة الطور / ٥٢ : ٣٥ - ك - .

« إِنَّ لِبَغْضِ الْحَيَوَانِ صَنْعَةً تَقَعُ عَلَى وَجْهِ لَا يُخْتَلِفُ . كَالنَّخْلِ  
مَثَلًا تَبْنِي بَيْتَهَا دَائِمًا عَلَى شَكْلِ سُدَامِي ، وَالْعَنْكَبُوتِ تَنْسُجُ خُبُوطَهَا  
مُسَطَّحَاتٍ ، وَدُودَةَ الْقَزِّ تُكْفِنُ نَفْسَهَا فِي لُفَافَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ بِبُضْبَةٍ  
الشَّكْلِ . فَإِذَا قُلْنَا إِنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ نَشَأَتْ عَنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ  
وَرَوِيَّةٍ مِنَ الْحَيَوَانِ صَحَّ لَنَا ذَلِكَ لِأَنَّهَا ضَرَبٌ وَاحِدٌ لَا تَفْنَى فِيهِ » .  
« وَأَنَّ مِنْ عَمَلِ الْإِنْسَانِ مَا يَقَعُ عَلَى وَجْهِهُ مُخْتَلِفَةٌ ، لَكِنَّهَا لَا تَعْنَمُ  
فِي اخْتِلَافِهَا شَيْئًا مِنَ الْمُنَاسَبَةِ وَالْحِكْمَةِ ، كَمَا نَقْدِفُ بِانْقَاضِ الْبِنَاءِ  
إِلَى الْأَرْضِ فَيَسْقُطُ كُلُّ حَجَرٍ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ كَيْفَمَا اتَّفَقَ فَإِذَا رَأَيْنَا  
هَذِهِ الْأَحْجَارَ مُخْتَلِفَةً الْأَوْضَاعِ وَالْأَبْعَادِ صَحَّ لَنَا أَنْ نَقُولَ أَيْضًا أَنَّ  
هَذَا الْاِخْتِلَافَ جَاءَ بِمَخْضِ الْمُضَادَّةِ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا شُعُورٍ » .  
« لَكِنْ هَلْ يُقَالُ مِثْلُ هَذَا فِي صَنْعَةِ الصَّائِغِ بِصَنْعِ السَّوَارِ عَلَى  
قَدْرِ الْمِعْصَمِ وَالْخَاتَمِ بِمِقْيَاسِ الْإِصْبَعِ ، وَهَلْ يُقَالُ مِثْلُ هَذَا فِي بِنَاءِ  
الْأَقْرَامِ وَتَحْوِهَا مِنَ الصَّنَاعَاتِ الْفَنِّيَّةِ ؟ كَلَّا . فَكَذَلِكَ الْأَمْرُ ، بَلْ  
أُخْرَى ، فِي هَذَا الْبُنْيَانِ الْفَخْمِ الَّذِي نُسَمِّيهِ ( الْكَوْنُ ) فَإِنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى  
مَا فِيهِ مِنْ كَثْرَةِ الْاِخْتِلَافِ دَقَّةَ الْوَضْعِ وَحُسْنَ التَّنْظِيقِ وَالِاتِّلَافِ ،  
فَقَبِي تَنْوَعِ أَجْزَاءِ بُنْيَانِهِ آيَةً عَلَى اخْتِيَارِ بَانِيهِ ، لِأَنَّهُ صَنَعَ فِي سَقْفِهِ  
بِالْمِ بَصْنَعَهُ فِي أَرْضِهِ ، وَجَعَلَ فِي أَسَاسِهِ مَا لَيْسَ فِي جَوَانِيهِ ، وَجَعَلَ  
فِيهِ مُنْعَا شَيْئًا ، وَأَسَكَنَ فِيهِ أَمَّا لَا تُحْصَى ، ثُمَّ فِي اِخْتِلَافِ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ

فِيمَا بَيَّنَّهَا . وَمُنَاسَبَةً كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا لِمَوْضِعِهِ الَّذِي وُضِعَ فِيهِ ، وَوَفَائِهِ  
بِالْحَاجَةِ الَّتِي تُطْلَبُ مِنْهُ ، آيَةً عَلَى عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ ، بَلْ عَلَى لُطْفٍ  
وَعَنَابَةٍ وَرَحْمَةٍ ، وَمَنْ دَرَسَ عِلْمَ الْحَيَوَانِ وَعِلْمَ النَّبَاتِ وَغَيْرَهُمَا مِنْ  
الْعُلُومِ الْكَوْنِيَّةِ وَقَفَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا يَزِيدُهُ بَصِيرَةً <sup>(١)</sup> .

« لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ لِلْبَيْئَةِ وَحْدَهَا أَنْرَأَ فِي هَذَا التَّكْوِينِ  
اتِّحَاداً وَاخْتِلَافاً ، فَفِي الْبَحْرِ مِنْ مُخْتَلَفِ صُورِ الْحَيَوَانِ عَجَائِبُ  
وَعَبْرٌ ، وَفِي الْغَابَاتِ مِنَ الْأَشْجَارِ الطَّبِيعِيَّةِ الْعَتِيقَةِ الَّتِي تَضْرِبُ  
يَعْرِوْقَهَا فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَتُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَتَتَنَفَّسُ فِي هَوَاءٍ وَاحِدٍ ،  
ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَاتٌ فِي الشَّكْلِ وَالْحَجْمِ وَاللَّوْنِ وَالطُّوْلِ وَالْقَصْرِ ، بَلِ  
الشَّجَرَةُ الْوَاحِدَةُ قَدْ تُؤْتِي طَعُومًا مُخْتَلِفَةً مِنَ الثَّمَرِ ، وَالْفُصْنُ الْوَاحِدُ

(١) وَذَلِكَ مَثَلًا بِالنَّمْلِ فِي وَجْهِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ تَرْكِيبِ أَصَابِعِ الْإِنْسَانِ وَخُفِّ  
الْبَعِيرِ وَحَافِرِ الثَّوْرِ ، وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ مَشَقِّ الطَّيْرِ وَتَمِ الْإِنْسَانِ وَتَحْرُطِهِ  
النَّمْلِ ، وَبَيْنَ الْأَجْهِزَةِ الْمُضْمِيَّةِ وَالْدَّمَوِيَّةِ وَالْخَوَاسِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ  
فَلِلْإِنْسَانِ مَعْدَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلِلْبَعِيرِ ثَلَاثُ مَعْدَاتٍ ، وَلِسَائِرِ الْحَيَوَانِ  
الْمُجْتَرِّ أَوْبَعُ ، وَلَيْسَ لِلدَّوْدَةِ الْوَاحِدَةِ جِهَازٌ مُضْمِيٌّ أَصْلًا . لِلْإِنْسَانِ  
وَالْأَنْوَاعِ الْعُلْبِيَّةِ مِنَ الْحَيَوَانِ قَلْبٌ كَامِلٌ ، وَلِلْأُنْثَاكِ نِصْفُ قَلْبٍ  
« أَذْبَنَ وَبَطْنَيْنِ » وَالْأَنْوَاعُ الدَّنِيَّةُ مِنَ الْحَيَوَانِ لَا قَلْبَ لَهَا . عَيْنُ الْإِنْسَانِ  
ذَاتُ عَدَسَةٍ وَاحِدَةٍ وَعَيْنُ الْبَعُوضِ وَالنَّمْلِ ذَاتُ عَدَسَاتٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا  
فَبِالنَّمْلِ فِي هَذَا وَأَمَّا لِهَذَا أَنْ كُلُّ فَصِيلَةٍ قَدْ اسْتَوْفَتْ مَطَالِبَهَا  
الَّتِي يَفْتَضِيهَا مَرْكَزُهَا فِي الوجودِ ، فَلَا تَنْقُصُهَا آلَةٌ يَتَطَلَّبُهَا اسْتَوْبُ  
مَعِيشَتِهَا وَلَيْسَ فِيهَا آلَةٌ تَزِيدُ عَنْ حَاجَتِهَا . بَلْ كُلُّ شَيْءٍ بِمِقْدَارٍ ،  
وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَذَ خَلْقَهُ الَّذِي بِنَاسِبِهِ .

يُخْرِجُ أَلْوَانًا شَتَّى مِنَ الزَّهْرِ ، كَمَا أَنَّ الرَّحِمَ الْوَاحِدَةَ تُنْشِجُ الْفَرَانِزَ الْمُتَفَاوِتَةَ وَالصُّوَرَ الْمُتَبَايِنَةَ مِنَ الْوَلَدِ ، وَلَوْ كَانَا نَوَآمِينَ لَكَانَ بَيْنَهُمَا اخْتِلَافٌ : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ )<sup>(١)</sup> . فَإِذَا أَضَفْنَا إِلَى الْوَسْطِ الطَّبِيعِيِّ شَيْئًا مِنَ الْاِخْتِخَابِ الصَّنَاعِيِّ نَجِدُهُ قَدْ يُجَدِّي قَلِيلًا فِي تَهْدِيبِ أَوْ تَنْوِيعِ بَعْضِ الْفَصَائِلِ الْحَيَوَانِيَّةِ أَوْ النَّبَاتِيَّةِ وَلَكِنَّهُ لَا يُجَدِّي فِي نَقْلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَنْ حَدٍّ مَحْدُودٍ ، وَنَحْنُ نَرَى النَّاسَ يَقْلَمُونَ أَظْفَارَهُمْ وَيَخْتَنُونَ أَوْلَادَهُمْ مِنْذُ آلَافِ السِّنِينَ وَلَمْ يَجِئْ يَوْمٌ يَسْتَعْنُونَ فِيهِ عَنِ الْخِتَانِ وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ .

« إِنَّ كُلَّ مَا نَسْتَفِيدُهُ مِنَ النَّظَرِ فِي الْبَيْتَةِ وَأَسْلُوبِ الْمَعِيشَةِ أَنَّ نَفْسَهُمْ وَجَهَ حَاجَةِ الْمَادَّةِ فِي تَكْوِينِهَا إِلَى جَهَازٍ مَا ، وَوَجَهَ مُلَاعَمَةِ هَذَا الْجَهَازِ لِحَاجَتِهَا وَلَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يُعْطِيهَا سَوْلَهَا وَيُجَهِّزُهَا بِجَهَازِهَا لَوْ كَانَ الَّذِي تَسْأَلُهُ لَا يَشْعُرُ بِحَاجَتِهَا ، وَكَانَتِ الْأُمُورُ تَجْرِي عَلَى غَيْرِ هُدًى يَقُودُهَا نَيَّارُ الْمُصَادَقَاتِ بَلْ هِيَ نَفْسُهَا لَا تَشْعُرُ بِمُسْتَقْبَلِهَا الَّذِي يَنْتَظِرُهَا حَتَّى تَطْلُبَ إِبَّانَ تَكْوِينِهَا مَا يَلَانِمُهُ .

« عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَتِ الْمُصَادَقَةُ هِيَ النَّيِّ وَلَدَّتْ هَذَا النِّظَامَ الْبَدِيعَ

يَغْيِرُ قَصْدَ فَمَا الَّذِي بُمُسْكُهُ وَيَحْفَظُهُ ، وَهُوَ بَعْدُ عُرْضَةٍ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ  
لَمَّا لَا بُحْصَى مِنَ الْمُضَادَّاتِ وَالْمُفَاجَأَتِ ؟ أَلَيْسَ لِأَنَّ هُنَاكَ عَيْنًا  
تُرَاقِبُهُ وَيَدَا تُمْسِكُهُ لَوْلَاهَا لَنَزَلَتْ وَاضْطَرَبَتْ أَوْ لَنَزَلَتْ وَفَسَدَتْ ؟ : ( إِنْ  
اللَّهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَنْزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ  
أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ) (١) .

وَأَخِيرًا لَوْ أَنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي عَلَى غَيْرِ هُدًى بِقُوْدِهَا تَيَّارُ الْمُضَادَّاتِ  
لَمَّا انْكَشَفَتْ أَسْرَارُ مُسْتَقْبَلِهَا الْبَعِيدِ لِأَحَدٍ عَلَى وَجْهِ صَحِيحٍ جَازِمٍ ،  
لَأَنَّهُ لَا يَدْرِي كَمْ يَحُوطُهَا مِنْ ظُرُوفٍ مُؤَانِبَةٍ أَوْ مُعَاسِيَةٍ ، لَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ  
قَدْ كَشَفُوا لَنَا عَنْ طَائِفَةٍ صَالِحَةٍ مِنْ تِلْكَ الْغُيُوبِ فِي أَخْبَارِ صَادِقَةٍ  
مَصْدُوقَةٍ فَمَنْ ذَا الَّذِي بَاحَ لَكُمْ بِسِرِّهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ صَانِعُهَا وَقَائِدُهَا  
الَّذِي رَسَمَ مَبَادِئَهَا وَغَايَتَهَا وَعَلِمَ مِنْهَا مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ .

« ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، ( الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ  
فَهَدَى ) (٢) وَالَّذِي ( يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ) (٣) ، وَالَّذِي يَسْمَعُ النُّجُومَ ، فَمَا لِي  
لَا أُنَاجِيهِ وَهُوَ يَرَانِي وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرَاهُ ، وَيَذَكِّرُنِي وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَغْفَلَ  
عَنْهُ وَأَنْسَاهُ . ( أَلَيْسَ اللَّهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ) (٤) ، آمَنْتُ بِاللَّهِ .  
آمَنْتُ بِاللَّهِ » .

(١) سورة فاطر ٣٥ : ٤١ - ك - ٤ . (٢) سورة الأعلى ٨٧ : ٢ و ٣ - ك - ٤ .  
(٣) سورة إبراهيم ١٤ : ١٠ - ك - ٥ . (٤) سورة طه ٢٠ : ٧ - ك - ٤ .

- الصُّورَةُ الثَّلَاثَةُ - : أَنْ يَكُونَ فِي الْأَصُولِ وَيَجِيءُ بِشَبْهَةٍ مُعَيَّنَةٍ فَيُؤَافِقُ الضَّرْبَ الْأَوَّلَ فِي صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُخَالِفُهُ فِي كَيْفِيَّةِ إِقْنَانِهِ وَتَلْقِيهِ فَالضَّرْبُ الْأَوَّلُ تَتَلَقَّاهُ النَّفْسُ بِالْقَبُولِ فَيَسْتَرْسِلُ عَلَيْهَا وَيَسْتَقِرُّ فِيهَا . وَهَذَا الضَّرْبُ تَتَفَرَّغُ لَهُ النَّفْسُ وَتَنْزَعُ مِنْهُ وَتَتَلَمَّسُ مِنْهُ الْمَخْلَصَ فَيَحْرُ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقٌ .

وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ فِي الْحَقِيقَةِ ظَاهِرَةٌ عَامَّةٌ لِلْوَسْوَسَةِ فِي الْإِيمَانِ بِصُورِهَا الثَّلَاثِ فَيَبِي فِي كُلِّ أَحْوَالِهَا لَيْسَتْ إِلَّا نَزْعَةٌ أَوْ إِلْمَامَةٌ وَقَتِيَّةٌ يُلْقِيهَا الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَةِ الْإِنْسَانِ . ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ يَنْسَخَهَا اللَّهُ مِنْ صَحِيفَةِ صَدْرِهِ وَيَرْبِطَ عَلَى قَلْبِهِ ، فَمَنْعَلَهَا كَمَنْعِلِ سَحَابَةِ الصَّيْفِ أَوْ عَارِضِ الطَّيْفِ سُرْعَانِ مَا تَنْجَلِي بِإِذْنِ اللَّهِ : ( إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ) <sup>(١)</sup> يَقُولُ : إِنَّ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ يَمُدُّهُمْ الشَّيَاطِينُ وَيَزِيدُونَهُمْ فِي الضَّلَالِ أَنَا بَعْدَ آتٍ ، ثُمَّ لَا يَكْفُ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينُ عَنْ إِضْلَالِهِمْ أَوْ لَا يَكْفُونَ هُمْ عَنْ ضَلَالِهِمْ ، فَهُمْ أَبَدًا فِي غَمْرَةٍ لَا تَنْجَلِي ، أَمَا الْمُتَّقِي فَإِنَّهُ سَرِيعُ الْفَيْتُو إِلَى رُشْدِهِ ، قَرِيبُ النُّهُوضِ مِنْ عَثَرَتِهِ .

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَفْهَمَ مَعْنَى كَوْنِ الْوَسْوَسَةِ فِي الْإِيمَانِ

(١) سُورَةُ الْأَعْرَافِ ٧/ ٢٠١ و ٢٠٢ - ك - ١ .



دَمَةِ الْإِيمَانِ ، ذَلِكَ أَنَّ الْوُسْوَاسَ الْخَنَاسَ مَتَى آتَمَّ مِنْ قَرِينِهِ  
تَعَدَّاداً لِقَبُولِ الشُّبُهَاتِ سَافَهَا إِلَيْهِ تَتَرَى وَاسْتَرْسَلَ مَعَهُ فِيهَا حَتَّى  
فُوتِيَهُ وَبُضِلَّهُ ، فَقَدَّمَ اسْتِرْسَالِهِ مَعَهُ وَوُقُوفُهُ عِنْدَ حَدِّ هَذِهِ النَّفَثَاتِ  
لِئَمْتَقِطَعَهُ بِالْكَلِمَةِ أَوْ الْكَلِمَتَيْنِ فِيمَا لَا يُوجِبُ رِبَةً مُشْتَقَّةً فِي أَضَلِّ  
بَنِ أَصُولِ الدِّينِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ أَيْسَرُ مِنْ إِغْوَايِهِ وَأَنَّهُ وَجَدَ فِيهِ مِنْ  
لُغْنَاعَةِ مَا يَخْتُمِيهِ مِنْ سُلْطَانِهِ . وَهِيَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ نِعْمَةٌ يُحْمَدُ اللَّهُ  
عَلَيْهَا . وَلِذَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي جَوَابِهِ لِلِسَّائِلِ الْمَذْكُورِ  
فِي حَدِيثِ « ابْنِ عَبَّاسٍ » : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوُسْوَاسَةِ (١) »  
بَلْ إِنَّا إِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِي حِكْمَةِ ابْتِلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِذِهِ الزَّلَازِلِ  
السُّطْحِيَّةِ وَجَدْنَا فِيهَا كَثِيراً مِنَ الذِّكْرَى وَالتَّبَصُّرَةِ ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ  
بِهَا أَنْ يَضْهَرَ قُلُوبَهُمْ بِنَارِ الْخَوْفِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ لِيَزْدَادُوا حِرْصاً عَلَيْهِ  
وَالْتِجَاءً إِلَى اللَّهِ فِي حِفْظِهِ ، إِذْ مَنْ ذَا الَّذِي بَرَى اللَّصُوصَ يَطُوفُونَ  
حَوْلَ حِصْنِهِ وَيَطْرُقُونَ بَابَهُ ثُمَّ يَأْمَنُ أَنْ يَلِجُوهُ أَوْ يَظْهَرُوهُ أَوْ يَسْتَطْبِعُوا  
لَهُ نَقَباً ؟ فَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ إِذَا مَسَّهُ طَائِفٌ مِنْ لُصُوصِ الشَّيَاطِينِ

(١) وَهِيَ « ابْنُ الْأَثِيرِ » - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَخَلَطَ هَذِهِ الْفُقُطَةَ مِنْ حَدِيثِ « ابْنِ  
عَبَّاسٍ » بِحَدِيثِ « أَبِي هُرَيْرَةَ » ، كَمَا خَلَطَ صَدْرُهُ الْمَذْكُورَ آنفاً بِحَدِيثِ  
« ابْنِ مَسْعُودٍ » وَعَزَّاهُ إِلَى رِوَايَةِ « مُسْلِمٍ » وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ رِوَايَةِ « أَبِي دَاوُدَ »  
وَقَدْ تَبِعَهُ صَاحِبُ « التَّيْسِيرِ » فِي ذَلِكَ كُلِّهِ . وَالصُّرَابُ مَا ذُكِرْنَا .  
وَسَنَنُ أَبِي دَاوُدَ : ٦٢٣/٢ - كِتَابُ الْأَدَبِ - بَابُ فِي رَدِّ الْوُسْوَاسَةِ .

أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً أَنْ يَتَسَوَّروا مِخْرَابَ قَلْبِهِ وَأَنْ يَسْرِقُوا مِنْهُ أَنْفُسَ  
 مَا فِيهِ وَهُوَ جَوْهَرَةٌ إِيْمَانِيَّةٌ ، لِأَنَّ مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحَمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ  
 فِيهِ ، وَلِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي أَمَرَ هَؤُلَاءِ السَّبَاطِينَ عَلَى التَّوَصُّلِ إِلَى بَابِ  
 الْحِصْنِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَفْتَحَهُ لَهُمْ وَيُمْكِّنَهُمْ مِنْهُ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي  
 بِيَدِهِ مَقَانِيخُ الْقُلُوبِ وَمَعَالِيْقُهَا يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ فَمَنْ يَشَأْ يُضْلِلْهُ  
 وَيَخْتِمْ عَلَى قَلْبِهِ ، وَمَنْ يَشَأْ يُذْهِبْ عَنْهُ رِجْزَ « الشَّيْطَانِ » ، وَيُبَيِّنْهُ عَلَى  
 الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ . فَإِذَا عَرَفَ الْمُؤْمِنُ ذَلِكَ ازدَادَ هَضْمًا لِنَفْسِهِ ،  
 فَلَا يَسْمَحُ بِأَنْفِهِ وَلَا يَحْنُ عَلَى اللَّهِ بِإِيْمَانِهِ ، بَلْ تَكُونُ هَذِهِ تَذَكُّرَةً لَهُ  
 بِسَالِفِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذْ هَدَاهُ مِنْ قَبْلِ الْإِيْمَانِ ، وَتَبَصُّرَةً لَهُ بِدَوَامِ  
 حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي عِصْمَتِهِ وَتَشْيِينِهِ ، فَيَزْدَادُ التَّجَاءُّدَ إِلَيْهِ وَحَذَرًا مِنْ  
 مَكْرِهِ وَبَرَاءَةً مِنْ حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ ، وَإِذَا يَقُولُ  
 كَمَا قَالَ « إِبْرَاهِيمُ » - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ( لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ  
 مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ) (١) أَوْ كَمَا يَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ : ( رَبَّنَا  
 لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ  
 الْوَهَّابُ ) (٢) حَتَّى إِذَا انْكَشَفَتْ عَنْهُ نِلَاقَةُ النُّعْمَةِ وَسَرَى عَنْهُ مَا كَانَ  
 يَجِدُ ، قَالَ : ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ  
 هَدَانَا اللَّهُ ) (٣) .

(٢) « سورة آل عمران / ٣ : ٨ - ٩ - ١٠ » .

(١) « سورة الأنعام / ٦ : ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ » .

(٣) « سورة الأعراف / ٧ : ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ » .

وَالآنَ ، وَقَدْ تَمَّ الْقَوْلُ فِي بَيَانِ الْحَدِّ مَا بَيْنَ غَوَايَةِ الشَّكِّ وَوَسْوَئَةِ التَّشْكِيكِ ، فَلْنَذْكُرِ الطَّرِيفَةَ الرَّشِيدَةَ فِي عِلَاجِ كُلِّ مِنْهُمَا أَخْذًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ .

أَمَّا شُبُهَاتُ الشَّكِّ فَعِلَاجُهَا الْفَرَعُ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي وَجْهِ حَلَّتْهَا مَعَ سُؤَالِ أَهْلِ الذِّكْرِ عَنِ الْبَرَاهِينِ الَّتِي تَقْلَعُهَا مِنَ النَّفْسِ : ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ) <sup>(١)</sup> ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، الْآيَةُ ) <sup>(٢)</sup> ( وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ) <sup>(٣)</sup> ( فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ <sup>(٤)</sup> مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ) <sup>(٥)</sup> .

(١) سورة يونس / ١٠ : ١٠٤ - م - ١ . (٢) سورة الحج / ٢٢ : ٥ - م - ١ .

(٣) سورة البقرة / ٢ : ٢٣ - م - ٤ .

(٤) لَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ فِي شَكٍّ ، وَلَا كَانَتْ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى السُّؤَالِ ، وَإِنَّمَا افْتَرَضَ فِيهِ افْتِرَاضًا كَمَا يُفْتَرَضُ الْمَحَالُ 'نَحْوُ' : ( إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ) سورة الزخرف / ٤٣ : ٨١ - ك - ١ ، وَذَلِكَ لِإِلْهَابِ حَمِيَّتِهِ وَزِيَادَةِ إِحْقَاطِ رُوحِهِ . كَمَا نَقُولُ لِلْوَائِي بِمَحَبَّتِكَ : « إِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ مِنْ مَحَبَّتِي لَكَ فَاسْأَلِ النَّاسَ » . هَذَا إِلَى مَا فِيهِ مِنَ اللَّطْفِ فِي تَعْلِيمِ الْأُمَّةِ بِجَعْلِ رَسُولِهَا قُدْوَةً لَهَا فِي طَلِبِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِهِ . مَعَ التَّعَرُّضِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنَّهُمْ يَتْلُوْنَ مِنَ الْعِلْمِ بِصِحَّةِ أَمْرِهِ مَبْلَغًا يَجْعَلُهُمْ مَرْجِعًا لِكُلِّ سَائِلٍ ، وَلَكِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ الْحَقَّ كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٥) سورة يونس / ١٠ : ٩٤ - م - ٤ .

وَأَمَّا وَسَاوِسُ الشَّكِكِ فَلَا يَقَعُّهَا سِلَاحُ الْحُجَّةِ وَلَا تُرْهِبُهَا  
الْمُنَاوِشَةُ بِالْجَدَلِ، بَلْ ذَلِكَ يَمَّا بِهِيجُ شَرِّهَا وَيَزِيدُ فِي أَخْطَارِهَا، بَلْ  
إِنَّ مُجَرَّدَ الْإِصْغَاءِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ وَفَتْحِ بَابِ الْمُنَاقَشَةِ فِيهَا  
يَعْدُ إِذْنًا لَهَا بِالْتَّرَدُّدِ وَالْإِلْحَاحِ عَلَى النَّفْسِ فَتَنَّمُو وَتُخَصِّبُ وَتَتَعَذُّ  
نَوْعًا مِنَ الْأَمْثَلَةِ لَا يَفِيفُ عِنْدَ جَوَابِ بَلْ كُلَّمَا سُدَّ أَمَامَهُ بَابٌ فَتُحَ  
بَابٌ : أَحَقُّ مَا تَقُولُ ؟ أَمْوِقُنْ أَنْتَ ؟ أَلَا يَجُوزُ أَنْ نَكُونَ مَخْلُوعًا ؟  
وَهَذَا اسْتُلُوبُ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ لَا يَخْضَعُ لِمَعْقُولٍ وَلَا مَنْقُولٍ، وَلَا يَفْتَحُ  
بِمُسَاهَدَةٍ وَلَا وَجْدَانٍ، فَمَنْ أَصْنَى إِلَيْهِ أَفْضَى بِهِ إِلَى الْحَيْرَةِ وَالشَّكِّ  
فِي كُلِّ مَعْلُومَاتِهِ، وَاتِّهَامِ عَقْلِهِ وَحَوَاسِهِ : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ  
السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ  
قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) (١).

وَأِنَّمَا الْعِلَاجُ النَّاجِعُ لِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْوِجْدَانَاتِ يَنْرَكِبُ مِنْ  
ثَلَاثَةِ عَنَاصِرٍ :

(١) : الْإِسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ وَسَاوِسِ الصُّدُورِ وَهَمَزَاتِ  
الشَّيَاطِينِ .

(٢) : مُرَاجَعَةُ ذَلِكَ الْوَسْوَاسِ، وَالصَّيْحَةُ فِي وَجْهِهِ بِكَلِمَةِ  
الْإِيمَانِ اسْتِخْفَافًا بِكَيْدِهِ .



يَمَا أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ (١) ، الْآيَةَ ) فَإِذَا وَجَدَتْ فِي نَفْسِكَ مِثْلَ مَا  
 ( هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢) ) (٣)  
 هَذِهِ الْمَقَاوِمَةُ السَّلْبِيَّةُ الَّتِي أَرْشَدَنَا إِلَيْهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
 وَسَلَّمَ - بِإِزَاءِ الْوَسَاوِسِ الِاعْتِقَادِيَّةِ هِيَ الَّتِي أَرْشَدَنَا إِلَى مِثْلِهَا بِإِزَاءِ  
 الْوَسَاوِسِ الْعَمَلِيَّةِ ، فَقَدْ شَكَّى إِلَيْهِ الرَّجُلُ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الْحَدَّثَ  
 وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ : « لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْنًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا » (٤)  
 - يَعْنِي حَتَّى يَتَيَقَّنَ - رَوَاهُ « الشَّيْخَانِ » وَغَيْرُهُمَا وَقَالَ : « إِذَا  
 نُودِيَ (٥) لِلصَّلَاةِ أَذْبَرَ الشَّيْطَانُ ... فَإِذَا قُضِيَ التَّوْبُوبُ أَقْبَلَ يَخْطُرُ  
 بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ فَهَنَاءُ وَمَنَاءُ وَذِكْرُهُ مِنْ حَاجَاتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ ،  
 حَتَّى يَظُلَّ الرَّجُلُ إِنْ يَذْرِي - أَيَّ لَا يَذْرِي - كَمْ صَلَّى ! أَلَا نَأْتِي  
 أَرْبَعًا ؟ فَإِذَا لَمْ يَفِرْ أَحَدُكُمْ كَمْ صَلَّى فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ -

(١) « سورة يونس / ١٠ : ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ » . وَتَمَّةُ الْآيَةِ : ( الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ  
 قَبْلِكَ ، لَمَّا جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْذِرِينَ ) .

(٢) « سورة الحديد / ٥٧ : ٣ - ٢ - ١ » .

(٣) « سنن أبي داود : ١ / ٢٢٣ - ٢٢٤ » - كتاب الأدب - باب في رد الوسوسة .

(٤) « صحيح مسلم : ١ / ٢٧٦ - ٢٧٧ » - (٣) - : كتاب الحيض - (٢٦) - : باب الدليل على أن

من يقن الطهارة ثم شك - الحديث رقم : ٩٨ .

(٥) انظر « صحيح مسلم : ١ / ٢٩١ - ٢٩٢ » - (٤) - : كتاب الصلاة - (٨) - : باب فضل الأذان

وهرب الشيطان - الحديث رقم : ١٩ .

رَوَاهُ « الشَّيْخَانِ » وَغَيْرُهُمَا « وَرَوَى « الإِمَامُ مَالِكٌ » عَنْ « الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ » أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ : « إِنِّي أَهَمُّ فِي صَلَاتِي فَيَكْثُرُ ذَلِكَ عَلَيَّ » .  
فَقَالَ لَهُ : « امْضِ فِي صَلَاتِكَ ، فَإِنَّهُ لَنْ يَذْهَبَ عَنْكَ ذَلِكَ حَتَّى تَنْصَرِفَ وَأَنْتَ تَقُولُ : « مَا أَنْمَعْتُ صَلَاتِي » <sup>(١)</sup> .

أَخْرَجَهُ « مُسْلِمٌ » وَ « أَبُو دَاوُدَ » : « مُسْلِمٌ » فِي « كِتَابِ الإِيمَانِ » ،  
بَابُ : « بَيَانُ الْوَسْوَسةِ فِي الإِيمَانِ وَمَا يَقُولُهُ مَنْ وَجَدَهَا » وَ « أَبُو دَاوُدَ »  
فِي مِثْلِ هَذَا الْبَابِ مِنْ « كِتَابِ الْأَدَبِ » .



« تَمَّ الْكِتَابُ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى »

(١) « الموطأ » : ٨٣ - (٤) - كتاب السهو - (١) - : باب العمل في السهو - الحديث رقم (٣) .

الصفحة	صاحب الترجمة
٦٠	ابن عباس : (عبد الله) .
٢٠٤	ابن عمر : (عبد الله) .
٤٧٣	ابن عمرو : (عبد الله) .
١٩٥	ابن مسعود : (عبد الله) .
٤٥٠	أبو أمية الباهلي : (صدي) .
١٥٥	أبو ذر الغفاري : (جندب بن جنادة) .
٢٤٧	أبو الحسن الأشعري .
١٢١	أبو سعيد الخدري : (معد بن مالك بن سنان) .
٤١	أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف .
٢٤٧	أبو منصور المائدي .
١٣٧	أبو هريرة : (عبد الرحمن بن صخر الدوسي) : (عبد الله بن عمرو) .
٣٥٧	الأشج : المنذر بن عاتق .
٣٠٩	أنس بن مالك ، الأنصاري الخزرجي .
٤٢	جابر بن عبد الله الأنصاري .
٢٢٧	الحسن البصري .
٢٧١	حميد بن عبد الرحمن الحميري .
١٦	خديجة بنت خويلد .
٤١٨	سفيان بن عبد الله الثقي .
٣٦١	الثريد الثقي : (مالك بن سويد) .
١٧٧	صهيب بن سنان الرومي .
٣٤٢	طلحة بن عبد الله .